مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

رحلة القلصادي الحجازيّة وقيمتها التّاريخيّة

The Qalasadi's Journey to Hijaz and its historical value

علاش مريم

Allache Meriem

كليّة العلوم الإسلاميّة خروبة جامعة الجزائر1 (الجزائر)

مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلاميّة

m.allache@univ-alger.dz

الارسال: 22/02/14 القبول :22/04/03 النشر:2022/04/16 المرسل: علاش مريم

الملخص:

مجال الدّراسات التّاريخيّة هو مجال واسع يتقاطع مع عدّة مجالات معرفيّة تساعد الباحث وتزوّده بمعطيات كثيرة في بحثه التّاريخي، ويعتبر أدب الرّحلة من بين المصادر العلميّة المهمّة التّي لا يمكن الاستغناء عنها في عمليّة تدوين التّاريخ، وذلك لما تحويه في مضامينها من معطيات تاريخيّة وجغرافيّة قد لا تتوفّر في المصادر الأخرى. وبناء على ذلك جاءت هذه الدّراسة لتركّز على القيمة التّاريخيّة لكتاب من كتب الرّحلة في العصر الوسيط، وهو رحلة القلصادي التّي انطلق فيها من الأندلس ليحطّ رحاله بالحجاز، بعد أن مرّ بكلٍّ من تلمسان وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة، فنستعرض في بحثنا هذا أثر هذه الرّحلة في إثراء الدّراسة التّاريخيّة.

الكلمات الدالة : القلصادي، الغرب الإسلامي، الحجاز، أدب الرّحلة، القيمة التّاريخيّة.

Abstract

The field of historical studies is a wide field that intersects with several fields of knowledge that help the researcher and provide him with many data. Travel literature is one of the most important and indispensable scientific resources in the process of writing history, due to its historical and geographical content that may not be available in other resources. Based on that, this study comes to focus on the historical value of one of the travel books in the middle ages. It is Al-Qalasadi trip in which the set off from Andalusia to Hijaz passing through Telemcen, Tunisia, the western Tripoli and Cairo. So we will review in this research the impact of this trip on enriching the historical study.

Keywords. Al-Qalasadi, Islamic West. Hijaz. Travel literature. Historical value

مقدمة:

يعتبر أدب الرّحلة -إلى جانب ما يتميّز به من خصائص جماليّة تلحقه بالفنون الأدبيّة- أحد أهمّ المصادر العلميّة التّي يستعين بها المؤرّخون والباحثون في عمليّة تدوين الأحداث وكتابة التّاريخ، وذلك لما تحويه بين صفحاتها من معلومات تاريخيّة وما توثّقه من تفاصيل قيّمة قد يغيب ذكرها في الكتب المفردة للتّاريخ وحده. فكثير من كتب الرّحلة هي عبارة عن مدوّنات تاريخيّة وجغرافيّة، إذ ترصد بين ثناياها أحداثا عدّة وتصوّر مناطق جغرافيّة في أزمنة معيّنة، ما كنّا لنطّلع على حالها لولا الرحلة التّي قام بها رحّالة ومسافرون دفعتهم ظروفهم وأسبابهم الخاصّة والمختلفة لخوض غمار هذه المغامرة، مترحّلين عن أوطانهم وأهلهم وبيئتهم التّي تربّوا فيها ليسيحوا في أرجاء هذه المعمورة.

وقد برز كثير من الرّحالة في تاريخ الرّحلة العربيّة سواء كانوا عربا أم غير عرب ولكنّ الجامع بينهم هو تدوين تفاصيل رحلتهم بحروف اللّغة العربيّة، فألّفوا الكتب في ذلك لتكون شاهدة على ما مرّوا به في رحلاتهم من مختلف المظاهر السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وكذا العلميّة والثّقافيّة وغيرها من جوانب الحياة الإنسانيّة المختلفة للفترة التّي عاش فيها صاحب الرّحلة، واشتهرت في تاريخ الأندلس أيّام إمارتها الإسلاميّة عدّة رحلات لعلمائها منها ما كان داخل القطر الأندلسي ومنها ما كان خارجه، ومن أشهرهم أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي (ت543هـ)، وأبو عبد الله محمد الشّريف الإدريسي (ت559هـ)، وأبو الحسن محمد بن جبير البلنسي (ت614هـ) وغيرهم كُثر ممّن دفعتهم عوامل وأسباب متنوّعة لمفارقة الأندلس والرّحلة مغربا ومشرقا، وكان خاتمة رحّالة الأندلس الذّي سطع نجم اسمه في سماء الغرب الإسلامي الرّحالة الأندلسي أبو الحسن علي البسطي المشهور بالقلصادي (ت891هـ).

وبناء على ذلك نطرح الإشكالية التّالية: ما هي القيمة المضافة لرحلة القلصادي في مجال التّاريخ وتدوينه؟

فيهدف هذا البحث إلى الكشف عن بعض الأبعاد التّاريخيّة ضمن آخر رحلة أندلسيّة متّجهة نحو أرض الحجاز، وهي رحلة أبي الحسن القلصادي الأندلسي (ت891م)، وهي تؤرّخ للغرب الإسلامي والحجاز مرورا بتلمسان وتونس ومصر خلال القرن التّاسع الهجري.

وأمّا فيما يخصّ منهج البحث فإنّ طبيعة الموضوع تفرض اتّباع المنهج التّاريخي التّحليلي.

1. ترجمة القلصادي ورحلته

1.1ترجمة القلصادي:

القلصادي يكنّى بأبي الحسن واسمه علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي، نسبة إلى مدينة بسطة الواقعة بجزيرة الأندلس[1] واشتهر بالقلصادي نسبة إلى بلدة قلصادة الواقعة ببسطة. كان مولده قبل سنة 815هـ، ولما بلغ سنّ التّميز كان القلصاديّ حريصا على طلب العلم والاستفادة من علماء

عصره بالأندلس، فطلب العلم بمدينته بسطة وقرأ بها القرآن برواية ورش من طريق نافع[2] وهي القراءة المنتشرة والمشتهرة بالغرب الإسلامي، كما درس الحساب والفرائض والفقه والنّحو والعربيّة[3]، وكان ذلك على يد جملة من شيوخ بسطة من أمثال علي بن عزيز (ت844هـ) ومحمد القسطرلي (ت844هـ) وعلي اللّخمي (ت844هـ) وغيرهم[4]، وانتقل فيما بعد من مدينته إلى غرناطة واستوطن بها لأخذ العلم عن جملة من شيوخها كابن فتّوح (ت867هـ) والسّرقسطي (ت865هـ)[5]، فحصّل علوما متنوّعة كثيرة برع بها فيما بعد.

وفي سنة 840هـ رحل القلصاديّ إلى تلمسان[6] بالمغرب الأوسط وكانت بوّابته في رحلته إلى المغرب الإسلامي، فرافق أبا الفضل المشدالي (ت864هـ)، ولازم أحمد بن زاغو المغراوي (ت845هـ) ودرس عليه الحساب والهندسة والنّحو والمعاني والبيان، ودرس على قاسم العقباني (ت854هـ) الأصلين، ودرس على محمد بن مرزوق الحفيد (ت842هـ) الفرائض والنّحو، وأخذ عن الجميع علوم التّفسير والحديث والفقه. وفي سنة 847هـ رحل إلى تونس حيث لقي أبا عبد الله محمد بن عقاب (ت851هـ) تلميذ ابن عرفة (ت803هـ)، والإمام أبا العبّاس أحمد القلشاني (ت863هـ)، والشّيخ أبا العبّاس أحمد بن عبد الرّحمن الشّهير بحلولو القروي (ت898هـ)[7]. ثمّ دخل القاهرة سنة 850هـ وحجّ سنة 851هـ ولقي أعلاما كثرا، ليعود بعدها إلى غرناطة في رحلة الإياب مارا بمدينة القاهرة مرّة أخرى حيث مكث بها وأقرأ النّاس وكتبوا عنه مصنّفاته[8].

لمّا حصّل القلصاديّ علوم الفقه والنّحو والحساب صار مجتهدا مواظبا على الإقراء والتّدريس، وصنّف الكتب الكثيرة في هذه العلوم الجليلة بل وُصف بأنّه آخر من له التّآليف الكثيرة من أئمّة الأندلس[9]، فممّا ألّفه في علم الفقه "أشرف المسالك إلى مذهب مالك"[10] و"شرح مختصر خليل"[11]، ومن مصنّفاته في الحساب "كشف الجلباب عن علم الحساب"[12] و"غنية ذوي الألباب في شرح كشف الجلباب"[13]، وصنّف في الفرائض والمواريث الكليّات وشرحها[14] و"تقريب المواريث"[15]، وله في التّصوف "شرح حكم ابن عطاء الله"[16] و"شرح البردة"[17]، وفي النّحو "غنية النّحاة وشرحاها الأكبر والأصغر"[18] و"شرح على رجز ابن مالك"[19]، وفي العروض له مختصر[20] و"شرح على الخزرجيّة"[21]، وصنّف في النّجوم "شرح أرجوزة ابن فتّوح"[22]، وفي علم المنطق "شرح إيساغوجي"[23]، وفي القراءات والحديث صنّف "شرح الأنوار السّنية لابن جزي"[24]، بالإضافة إلى كتاب "النّصيحة في السّياسة العامّة والخاصّة"[25]، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط ومنها ما لا يزال مفقودا.

كان القلصادي أحد علماء الأندلس الذّين عايشوا نكبة آخر معقل من معاقل الإسلام بها في القرن التّاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث كانت الأوضاع بمملكة غرناطة قاتمة وصارت المنطقة إلى حالة من التّردي السّياسي وكذا العلمي الذّي عبّر عنه القلصادي بإنشاده بيتا[26] جرى مثلا في الدّلالة على هذه الحال قال فيه صاحبه:

لقد هزلت حتّى بدا من هزالها كلاها وحتّى استامها كلّ مفلس

ولكن رغم الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة المضطربة التّي كانت تعيشها بلاد الأندلس في ذلك العصر فإنّ القلصادي لم يتخلّ عن طلب العلم بغرناطة وضرب في الأرض مرتحلا بين مدن العالم الإسلامي ليس لأجل الاستكشاف والفرجة فقط، وإنّما للعمل والكدّ في مجال العلم وتحصيل الإجازات من الشّيوخ الذّين قابلهم في رحلته، إلى أن عاد إلى دياره بالأندلس فغدى شعلة مضيئة ومنارة للقاصدين ودرس عليه مجموعة من الطّلبة الذّين سطع نجمهم من بعده وتحوّلوا إلى علماء زمانهم من أمثال أبي جعفر أحمد البلوي (ت938هـ)[27] الذّي قرأ عليه بغرناطة ووفاء بفضل شيخه القلصادي قال عنه: "وحصل لي ببركته وخالص نيّته –نفعه الله ونفع به- نفع كثير، ولم أر مثله سلامة باطن وصدق نيّة وحرصا على إيصال الفائدة"[28]، وبتلمسان قرأ عليه عالمها وصالحها الكبير الإمام محمد بن يوسف السّنوسي (ت895هـ) والذّي أجازه القلصادي في جميع ما يرويه[29]، و ممّن درس عليه أيضا أبو عبد الله محمد الملالي (ت898هـ)[30]، فنهل النّاس من علم القلصادي الذّي تكبّد في سبيله عناء السّفر والاغتراب عن الوطن مخترقا لحدود المسافة بين المشرق والغرب الإسلامي.

وتوفي القلصادي في سنة 891هـ بمدينة باجة التّونسيّة[31] التّي استقرّ بها بعد رحلته الثّانية من الأندلس إلى المغرب الإسلامي، فالتحقت بالرّفيق الأعلى تلك الشّخصية العلميّة القلقة التّي لم تكفّ باحثة دوما عن الفائدة العلميّة قاطعة في سبيلها حواجز المسافات غير متأثّرة بعناء الطّريق ومرارة الغربة، ورحل آخر رحّالة أندلسي في رحلة جديدة تربط الأرض بالسّماء بعد رحلته الأرضيّة بين الشّرق والغرب.

2.1 التّعريف برحلة القلصادي:

في الأيّام الأخيرة لمملكة غرناطة المسلمة حيث أصابها الهوان السّياسيّ والعلمي، وبات أعداؤها النّصارى يتربّصون بها المكاره ويعدّون لسقوطها العدّة وليطردوا الإسلام من ديارها ويستردّوها إلى الحضيرة المسيحيّة، آثر كثير من علماء غرناطة ومفكرّيها الهجرة من بيئتها التّي هذه حالها، وقصدوا أنحاء من البلاد الإسلاميّة التّي احتضنت الوافدين إليها من وطنهم الجريح والباحثين في أقاليمها عن جوٍّ علمي وأمني مريح.

ومن بين هؤلاء المهاجرين الرّحالة البسطي أبو الحسن علي بن محمد القلصادي، والذّي دوّن ما مرّ به في رحلته بكتاب أسماه "تمهيد الطّالب ومنتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل والمناقب"، مزج فيه بين وصف ما صادفه بالبدان التّي ارتادها وبين التّرجمة لشيوخه الذّين بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين شيخا بالمغرب والمشرق، فكانت رحلة أندلسيّة حجازيّة تجمع بين ثناياها اكتشاف الأمصار مع ذكر المشايخ والعلماء ومجالس العلم وتؤرّخ لانتقال صاحبها من مكان إلى آخر.

إنّ الدّوافع التّي حملت القلصادي على خوض غمار رحلته التّي انطلق فيها من الأندلس إلى تلمسان، ومنها إلى تونس فطرابلس الغرب ثم الإسكندريّة فالقاهرة ويختمها بالحرمين الشّريفين، كانت تتردّد بين

الدّافع المعرفي والدّافع الدّيني، حيث كان هذا الأخير أهمّ محرك لهجرة العلماء من أوطانهم وذلك لزيارة الأماكن المقدّسة كمكّة والمدينة وبيت المقدس، ولهذا اتّخذت رحلة القلصادي جهة المشرق وإن كان بالمغرب مدن كثيرة مشهورة لم يقصدها في رحلته مثل فاس ومكناس ومرّاكش، فكان الدّافع الدّيني يحثه في رحلته لزيارة البيت الحرام والمدينة المنوّرة.

أمّا الدّافع المعرفي فكان مما دفع القلصادي لرحلته عن وطنه هو أن يغترف من مناهل العلوم المنتشرة والمشتهرة بالمدن التي كانت تعدّ حينها مراكز إشعاع علمي وثقافي، وهذا ما يفسّر المحطّات التّي توقّف فيها برحلته مثل مدينة تلمسان وتونس والقاهرة وأخيرا الحرمين الشّريفين، وقد كانت حال العلم بالأندلس حينها لا تروق للقلصادي وهو ما أخبر به في ترجمته لشيخه أبي الحسن علي اللّخمي القرقابي[32]، فذكر أنّ سوق العلم لم تعد رائجة ببسطة مسقط رأسه ولا بما جاورها من الحصون مثل شوجر وقنالش، بعد كانت حركة العلم بها فيما سبق مزدهرة رائجة بالتّنافس القائم بين العلماء، فكان هذا ممّا اضطره إلى أن يلتمس العلم بالمغرب والمشرق الإسلامي رغم ما يكتنف هذه المغامرة من أخطار تترصّده في طريقها.

بدأ القلصاديّ رحلته في سنة (840هـ/1437م) فكانت أوّل مدينة حطّ رحاله في مرفئها العلمي هي مدينة تلمسان التّي كانت تعيش حياة علميّة وثقافيّة زاخرة، وأخذ عن العلماء المشهورين بها في ذلك العصر من أمثال محمد ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ) وأبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ) وأحمد ابن زاغو المغراوي (ت845هـ)، ووصف لنا مدى ازدهار الحياة العلميّة بتلمسان وكثرة العلماء بها بقوله: "وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصّلحاء والعبّاد والزّهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلّمين والمعلّمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مرتقية"[33]، ومكث القلصادي بتلمسان ما يقرب من ثماني سنوات وقضى بها سبعة أشهر أخرى في رحلة عودته من مكّة إلى الأندلس.

وكانت محطّة القلصادي الثّانية التّي نزل بها هي مدينة تونس في أواخر سنة (847هـ/1443م) وأخذ عن علمائها أمثال القاضي محمد بن عقاب الجذامي (ت851هـ) وأبي العبّاس أحمد القلشاني (ت863هـ) وأبو عبد الله محمد الدّهان (ت853هـ) وغيرهم، وعبّر عن إعجابه بحالتها العلميّة والثّقافيّة حيث كانت "سوق العلم حينئذ نافقة وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة"[34]، وكانت إقامته بمدينة تونس ما يقرب من العامين.

ثم واصل القلصادي طريقه إلى الدّيار المقدّسة فسلك عبر جربة وطرابلس الغرب والإسكندريّة ليحطّ رحاله بعدها بالقاهرة[35] سنة (850هـ/1446م)، وفيها أخذ عن الشّيخ طاهر بن محمد النّويري المالكي (ت856هـ) والشّيخ الفقيه أبو العبّاس علم الدّين الحصني الشّافعي، فأقام بالقاهرة في رحلة الذّهاب

نصف سنة وفي رحلة العودة من الحجاز مكث بها أكثر من سنة طلب فيها العلم واشتغل بالإقراء والتّدريس.

ووصل في نهاية رحلة الذّهاب إلى مقصوده الأسنى وغايته العظمى منها وهي زيارة مكّة بيت الله الحرام[36]، فأدّى بها العمرة ثمّ مناسك الحجّ، ثمّ اشتغل بالعلم فتفرّغ للتأليف حيث كتب كتابه "شرح فرائض ابن الحاجب"، واقتنص الفرصة لطلب العلم فأجازه الشّيخ المحدّث أبو الفتح محمد الحسني المراغي (ت859هـ) في أسانيده على الأحاديث.

عاد بعدها القلصاديّ إلى مدينة بسطة ومنها ارتحل إلى غرناطة واستقرّ بها حتّى عام (888هـ/1483م)، ليرحل عنها ثانية بسبب تدهور أحوالها حيث كانت على وشك السّقوط لما آلت إليه من ظروف سياسيّة متردّية، فقصد تلمسان للمرّة الثّانية ونزل ضيفا على ابن مرزوق الكفيف (ت901هـ) ولد ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ) ومكث عنده بضعة أشهر، ورحل بعدها إلى تونس واستقرّ بمدينة باجة إلى توفي بها سنة (891هـ/1486م).

ودامت رحلة القلصادي الأولى خمس عشرة سنة في ذهابه وإيابه، اشتغل فيها بطلب العلم والقيام لتدريسه مع حرصه الشّديد على الاستفادة من العلماء الذّين قصدهم، فكان ذا عزيمة كبيرة في طلب وخدمة العلم لم يصبها فتور أو كسل رغم كلّ الظّروف التّي كانت تعانيها بلاد الأندلس، فالقلصادي بذلك يمثل صاحب الإرادة القويّة التّي لا تقهر في سبيل جمع العلم ونشره، فنال منه الحظّ الوفير وحصّل من مجالاته المتنوّعة الكثير، حتّى كان العالم الموسوعيّ الذّي ضرب في كلّ فن بسهم.

2. القيمة التّاريخيّة لرحلة القلصادي

1.2التّأريخ للغرب الإسلامي:

تزامنت رحلة القلصادي مع فترة مهمّة من تاريخ الغرب الإسلامي، وهي فترة انهيار الإمارة الإسلاميّة بالأندلس وما ترتّب عن ذلك من آثار سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة، وهذا ما أكسب هذه الرحلة أهميّة بالغة في ميدان التّأريخ للأندلس وتداعيات سقوط مملكة غرناطة في نهاية القرن التّاسع الهجري، فرغم الانحدار السّياسي الذّي عاشته الأندلس في هذا العصر فإنّ رحلة القلصادي تبرز نخبة من علمائها الذّين حافظوا على السّند العلمي بها وتعاونوا لأجل خدمة الدّين الإسلامي فيها.

كما تتجلّى أهميّة رحلة القلصادي فيما حوته من تصويره لجوانب مهمّة في تاريخ العالم الإسلامي، وذلك مثل اعتنائه بوصف المدن التّي مرّ بها في رحلته، ففي وصفه لمدينة تلمسان وأهلها قال: "ذات المحاسن الفائقة والأنهار الرّائقة والأشجار الباسقة والأثمار المحدقة والنّاس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطّباع والأنفاس"[37]، وكذلك في كلامه عن مدينة جربة بتونس ذكر هواءها الصّحيح وفضاءها الفسيح وخصوبة أراضيها وما غُرس بها من أنواع الأشجار المثمرة كالنّخيل والزّيتون والتّفاح

"وممّا خصّت به لين الصوف ورطوبته وتصير الشّاة من غير الجزيرة فيها بعد إقامة سنة مثل شياهها في رطوبة الصّوف"[38]، كما وصف مدينته بسطة بأنّها تتميّز بالهواء النّقي والفضاء الفسيح الخصب وتأثير ذلك في أهلها الذّين حصل لهم منها صحّة الأجسام وكريم الخصال[39]، فكان تصويره لهذه المدن متركّزا على مناخها وبيئتها وتأثير ذلك في طبيعة أهلها وما تميّزت به.

كما يعرض لما شاهده فيها من معالم حضارية فذكر المدارس والمساجد والزّوايا والمزارات والمقابر وبيّن مواقعها، مثل المدرسة النّصريّة ومسجد الكوثر بغرناطة[40]، والجامع الأعظم والمدرسة اليعقوبيّة التّي أسّسها أبو حمّو الثّاني بتلمسان[41]، والجامع الأعظم بوهران[42]، وزاوية سيدي محرز بن خلف قرب باب السّويقة بالمدينة الجديدة والمدرسة المنتصريّة[43] في تونس وجامع الزّيتونة الذّي أسّسه الأمير عبيد الله بن الحبحاب[44]، ومدرسة ابن ثابت[45] بطرابلس الغرب.

وأمّا مواضع الدفن فذكر مقبرة ألمريّة حيث زار بها مقام القاضي أبي الوليد الباجي (ت474هـ)[46]، وروضة دفن بباب إلبيرة بغرناطة[47]، كما ذكر بتلمسان الرّوضة[48] غربيّ المسجد والتّي دُفن بها شيوخه ابن مرزوق والعقباني، ومقبرة طريق العبّاد[49] وهي قرية قريبة من تلمسان بها قبور الأولياء فدفن بها شيخه ابن زاغو وبباب الجياد جنوب حي العبّاد دفن شيخه محمد الشّريف[50]، أمّا بتونس فذكر مقبرة الزّلاج خارج باب علّاوة[51] ولا تزال موجودة إلى اليوم يدفن بها النّاس موتاهم وبها دفن الولي أبو الحسن الشّاذلي (ت656هـ).

اهتمّ القلصادي أيضا بوصف الحالة العلميّة للمدن التّي مرّ بها، فوصف في بداية رحلته تردّي حال العلم ببسطة والحصون المجاورة لها مثل شوجر وقنالش[52]، على خلاف ما كان بتلمسان التّي أغراه ما سمعه عن رواج العلم بها، وصدَّق ذلك ما أدركه فيها من كثرة العلماء والعبّاد والصّلحاء ونشاط حركة التّعليم بها وعلوّ الهمم في تحصيله[53]، وهي الحال نفسها التّي وقف عليها بتونس حيث كانت سوق العلم رائجة لدرجة "أن ترى مدرسة أو مسجدا إلا والعلم فيه يبثّ أو ينشر"[54]، فقد كان العلم في هذه الفترة بالمغرب الإسلامي أحسن حالا منه بالأندلس التّي كانت تواجه آخر أيّامها تحت حكم الإسلام واشتغل علماؤها بحشد النّاس لجهاد العدو.

علاوة عن ذكره للعلماء والشّيوخ الذّين قابلهم أو درس عليهم خلال رحلته، وهي غايته الأساسيّة التّي من أجلّها دوّن هذه الرّحلة بخروجه من بسطة مسقط رأسه كما ذكر ذلك في بداية كتابه[55]، فترجم لشيوخه بذكر بعضٍ من سيرتهم وخصالهم ومجالات اختصاصهم وعرّف بالعلوم والمؤلّفات التّي درسها عليهم مع ذكر تواريخ لقائه بهم وتاريخ فاتهم. وأرّخ بذلك لبعض الأحداث والجوائح مثل الأوبئة التّي مسّت البلاد فذكر في ترجمته لشيوخه ببلدته بسطة أنّ بعضا منهم قضى في الوباء الذّي أصاب البلد سنة 844هـ[56]، وذكر وباء تلمسان الذّي مات فيه الشّيخ العالم الصّالح ابن زاغو سنة 845هـ[57]، وهذا ما يعبّر

عن الحالة الاجتماعيّة المتردّية التّي منيت بها المنطقة إذ وصل فتك الوباء إلى أن مات من جرّائه حتى العلماء.

كما يلاحظ اهتمامه بتحديد المسافات والأطوال فبيّن أنّ شوجر تبعد من بسطة ما يقدّر بستّة أميال[58] وهي آخر بلاد الأندلس من جهة الجنوب، وقدّر دائرة جزيرة جربة التّونسيّة باثنين وسبعين ميلا وأمّا طولها وعرضها فبلغا ثمانية عشر ميلا[59]، كما ذكر محطّات رحلته التّي ترسم طريق تنقّله من الأندلس فخرج من بلدته بسطة إلى مدينة تلمسان التّي دخلها من مرفأ وهران، وعند ارتحاله من تلمسان عاد إلى وهران فسافر عبر مرساها الكبير إلى مدينة تونس ثمّ انتقل عبر مرسى تونس إلى جزيرة جربة ومنها توجّه إلى طرابلس الغرب والتّي سافر من مرساها إلى ثغر الإسكندريّة، فكانت رحلته في الغرب الإسلامي بحريّة بريّة مع ما اكتنفها من مشقّة التّنقل التّي ذكرها بين فصول كتابه وهي ميزة السّفر في ذلك الزّمن حيث كان قطعة من العذاب.

2.2التّأريخ للمشرق الإسلامي:

دخل القلصادي بلاد المشرق الإسلامي عبر مدينة الإسكندريّة التّي أعجب بها فوصفها قائلا بأنّها: "من أحسن البلاد ترتيبا وبناء، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور، وسككها كلّها على نسق نافذة متّسعة، يعلم من ذلك أنّها من تخطيط حكيم، وبناؤها تحت الأرض محكم والماء يخترق باطنها، غير أنّها خربت وخلا أكثرها من العمارة وهي كثيرة الوخامة، فلا تجد أهلها إلا صفر الوجوه، وإذا مرّ على الإنسان فيها يوم أو يومان يشعر بالضّعف والنّقص في بدنه، وذلك من أجل مائها"[60]، ولمّا دخل القاهرة تعجّب من كثرة الخلق بها وازدحام النّاس فيها[61] وهذا يعبّر عن التّركيب الدّيمغرافي للمدينة في صورة بسيطة عبر المعاينة البصريّة المجملة دون تقديم إحصائيات دقيقة وهو حال القاهرة وبلاد مصر إلى اليوم. وبالحجّ وصف القلصادي موضع الجمار الثّلاثة بمنى فقال: "جمرة العقبة وحذاها قبّة هائلة... ثمّ بعدها منى وهي قرية كبيرة... وفي وسطها الجمرة الثّانية والثّالثة وهي عبارة عن موضع مخصوص فيه علامة طولها نحو الإنسان مبنيّة بالجبس والآجر"[62]، وهذا الوصف العمراني الدّقيق الذّي قدّمه يعطينا صورة مقرّبة لما كانت عليه هذه المعالم والمدن في ذلك الزّمن.

أمّا فيما يخصّ المعالم الأثريّة فذكر أنّه من العجائب التّي رءاها بالإسكندريّة سارية خارج باب السّدرة[63] وهي عمود السّواري المرتفع في الهواء، وتحتها قاعدة هي عبارة عن مربّع متساوي الأضلاع وذكر بأنّ طولها مقدّر بعشرين شبرا. أمّا بمكّة فكانت المعالم التّي زارها هي جبل وغار ثور وفويقه غار المائدة الذّي اعتبره من العجائب لكونه كهفا عظيما ممسوكا بقدرة الله تعالى ومن أصعب الجبال صعودا[64]، ومكّة معروفة بالجبال مثل جبل أبي قبيس[65]، كما ذكر غار حراء ووصفه بأنّه مثلّث وطوله يزيد عن تسعة أشبار وعرضه ستّة أشبار. وبمكّة وصف دار أبي بكر الصّديق ودار الخيزران وهي دار الأرقم المخزومي

حيث كان الصّحابة في مرحلة الدّعوة السّرية بمكّة[66]، فكانت كلّ هذه المعالم موجودة معروفة لزوّارها في زمانه منها ما يزال موجودا ومنها ما فُقد أثره.

وذكر من المدارس بمصر المدرسة المؤيّدية قرب باب زويلة[67] ووصف نشاط العلماء بها، وأمّا المساجد التّي كانت قائمة بالقاهرة ذكر جامع الأزهر ومسجد الحسين، وبمكّة مساجد عائشة المعروفة بالتّنعيم، ومسجد البيعة الذّي يبعد عن البلد مسافة الميلين، ومسجد الخيف العظيم بمنى، ومسجد الرّسول صلى الله عليه وسلّم.

ويذكر القلصادي في جزء رحلته المتعلّق بالمشرق الأماكن المشرّفة التّي اختصّها بالزّيارة مثل مقام الإمام الشّافعي ومقام السّيدة نفيسة[68] وهما بالقاهرة، كما زار بجدّة مقام أمّنا حوّاء[69]، ومقام العبّاس والحسين وحمزة وإمام دار الهجرة الإمام مالك[70]. ولم يغفل زيارة الموالد بمكّة[71] فذكر موضع مولد الرّسول صلى الله عليه وسلّم وداره حيث مولد ابنته فاطمة وقبّة الوحي بدار خديجة وكذا موضع مولد علي بن أبي طالب.

بالإضافة إلى اهتمامه بالمشهد الدّيني عند حديثه عن زيارة البقاع المقدّسة ورحلة الحج ومشاعره، فوقف متأثرا عند بلوغه مكّة التّي وصف الهيبة التّي خصّها الله بها والتّعظيم يدهش النّاظر ويحيّر المتفكّر[72]، وحين بلوغه الحرم النّبوي الشّريف قال عنه: "كساه المولى الجليل الهيبة والتّعظيم فأشرقت أنواره ولاحت أسراره"[73]، ويظهر القلصادي عند حديثه عن البقاع المقدّسة مرهف الإحساس شاعرا بعظمة المقامات التّي وقف بها، مجلاً لرمزيّتها وقدسيّتها ذا شوق ملتهب إلى وطنه. وذكر زيارته للمناطق المرتبطة بمناسك الحجّ والعمرة مثل الصّفا والمروة وموضع الجمار الثّلاثة ومساجد عائشة وغار المرسلات والجِعرانة وغيرها، وهو يستحضر عند وصفه لهذه الأماكن ما ارتبط بها من مواقف وأحداث في السّيرة النّبويّة و التّاريخ الإسلامي.

كما عرّف بالمسالك التّي كان يقطعها الحجيج في رحلتهم من الغرب الإسلامي إلى البلد الحرام، ولم يغفل وصف الحركة العلميّة بكلّ المناطق التّي مرّ بها فقدّم سردا للكتب التّي ألّفها العلماء والتّي كانت تدرّس للطّلبة والمبرمجة في المدارس أو المساجد التّي نزل بها، فرحلة القلصادي تعدّ دليلا للباحث في تاريخ الحياة الفكريّة والثّقافيّة للعالم الإسلامي خلال القرن التّاسع الهجري.

4.خاتمة:

في ختام دراستنا لرحلة أبي الحسن القلصادي وتتبّع محطّات تنقّله نخلص إلى القول بأنّ هذه الرّحلة تعتبر من الرّحلات الفريدة التّي كانت بين الغرب الإسلامي والمشرق، خاصّة وأنّها آخر رحلة أندلسيّة خاضها عالم مسلم من علماء القرن التّاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، ولعلوّ مقام صاحبها في العلم الدّيني وبعض العلوم العقليّة جاء كتاب رحلته خاليا من الأمور الغريبة التّي تميل إلى المبالغة والطّابع

الخيالي الذّي تتّسم به بعض الرّحلات الأدبيّة الأخرى كما هي عادة الرّحالة في حكاية ما شاهدوه من أمور عجيبة وغريبة في البلدان التّي زاروها.

تمدّنا رحلة القلصادي بمعلومات تاريخيّة وجغرافيّة واجتماعيّة وثقافيّة مهمّة، تخصّ المناطق والبلدان التّي نزل أو مرّ بها في رحلته، فرغم أنّها كانت في غايتها الأساسيّة دينيّة علميّة فإنّه لم يقصرها على الحديث فقط عن مشايخه، وإنّما مزج فيها بين التّرجمة لشيوخه وبين الحديث عن الأماكن التّي مرّ بها وأقام فيها منذ خروجه من بلدته بسطة إلى غاية بلوغه البقاع المقدّسة في رحلة الذّهاب إلى مكّة وفي رحلة العودة إلى غرناطة.

يتّسم حديث القلصادي في رحلته بالإيجاز غالبا، ممّا جعل كتابه صغيرا مقارنة بالسّنوات التّي قضاها في رحلته، فلم يتوسّع في ذكر الأحداث ووصف الأماكن، ولكنّها لم تخل من الفائدة التّاريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة، واهتمّ بذكر ما شاهده ببلاد الحرم أكثر ممّا شاهده بغيرها من البلدان. وحتّى في ترجمته لشيوخه لم يتوسّع في حكاية أطوار حياتهم وركّز على ذكر صفاتهم وقيمتهم العلميّة وما أخذه عنهم من العلوم، واهتمّ بتعداد الكتب التّي درسها عليهم وهذا ما يؤرّخ به للنّشاط العلمي وطرق التّدريس ومقرّراته في زمانه، فتعدّ رحلة القلصادي وثيقة تاريخيّة مهمّة في هذا الباب.

الهوامش:

1 السّخاوي، الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع، دار الجيل، بيروت، 1992م، ج6، ص14.

2 المصدر نفسه.

3 المصدر نفسه.

4 القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشّركة التّونسيّة للنّشر والتّوزيع، تونس، 1978م، ص83، 87.

5 التّنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، دار الكاتب، طرابلس، 2000م، ص339.

6 السّخاوي، الضّوء اللّامع، مصدر سابق، ص14.

7 التّنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص339.

8 السّخاوي، الضّوء اللّامع، مصدر سابق، ص15.

9 التّنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص339.

10 ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثّعالبيّة، الجزائر، 1908م، ص142.

11 محمد مخلوف، شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكيّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، 2003م، ج1، ص377.

12 حاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م، ج2، ص1488.

13 طُبع بفاس سنة 1897م وبالقاهرة سنة 1891م.

14 الزّركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج5، ص10.

15 المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، دار صادر، بيروت، 1997م، ج2، ص694.

16 ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص142.

17 المصدر نفسه، ص142.

18 محمد مخلوف، شجرة النّور الزّكية، مصدر سابق، ص377.

19 المقري، نفح الطّيب، مصدر سابق، ص694.

20 ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص143.
21 المقري، نفح الطّيب، مصدر سابق، ص694.
22 التّنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص340.
23 المصدر نفسه.
24 عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ج2، ص962.
25 الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج5، ص10.
26 القلصادي، رحلة القلصادي، مصدر سابق، ص92/91.
27 التّنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص138.
28 البلوي، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص104.
29 التّنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص564.
30 الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج5، ص301.
31 الكتّاني، فهرس الفهارس، مصدر سابق، ج2، ص962.
32 القلصادي، رحلة القلصادي، مصدر سابق، ص91.
33 المصدر نفسه، ص95.
34 المصدر نفسه، ص115.
35 المصدر نفسه، ص126.
36 المصدر نفسه، ص132.
37 المصدر نفسه، ص95.
38 المصدر نفسه، ص124/123.
39 المصدر نفسه، ص92.
40 المصدر نفسه، ص165، 168.
41 المصدر نفسه، ص105/104.
42 المصدر نفسه، ص111.
43 المصدر نفسه، ص115/112.
44 المصدر نفسه، ص121.
45 المصدر نفسه، ص124.
46 المصدر نفسه، ص161.
47 المصدر نفسه، ص164.
48 المصدر نفسه، ص97، 107.
49 المصدر نفسه، ص106.
50 المصدر نفسه، ص100.
51 المصدر نفسه، ص117.
52 المصدر نفسه، ص91.
53 المصدر نفسه، ص95.
54 المصدر نفسه، ص115.
55 المصدر نفسه، ص82.
56 المصدر نفسه، ص84، 90.
57 المصدر نفسه، ص104.
58 المصدر نفسه، ص86.
59 المصدر نفسه، ص123.

60 المصدر نفسه، ص125.
61 المصدر نفسه، ص126.
62 المصدر نفسه، ص137.
63 المصدر نفسه ص125.
64 المصدر نفسه، ص136.
65 المصدر نفسه، ص141.
66 المصدر نفسه، ص140.
67 المصدر نفسه، ص156.
68 المصدر نفسه، ص128.
69 المصدر نفسه، ص131.
70 المصدر نفسه، ص146.
71 المصدر نفسه، ص139.
72 المصدر نفسه، ص132.
73 المصدر نفسه، ص145.